**بسم الله الرحمن الرحيم**

**المحاضرة السابعة الرواية المغاربية ما بعد الكولونيالية**

**الأنا، الآخر، الهوية**

**بدايات:**

سعت الرواية المغاربية العربية المعاصرة إلى تحيين صورة الأنا والآخر في متخيلها السردي، فتحدد ذلك ضمن أنساق متباينة نسجت تحت إمرة أسيقة مخصوصة، وبعودتنا إلى الكتاب المغاربة في متونهم الحكائية، نجدهم قد رسموا صورة للأنا، وفيها تجلّي للهوية المغاربية كمجتمع، عادات، تقاليد، دين، لغة، ...إلخ، أي صورة الأنا بحسب المجتمع الذي تنتمي إليه هذه الأنا، ولا يفوتنا هنا الإشارة، أنه بقدر "المعرفة العميقة والشاملة بالمجتمع الذي يصوره الأديب تجعل الصورة التي يرسمها في أدبه غنية ودقيقة وتفصيلية"**1**، هذا الطرح من زاوية الأنا.

أما بالنسبة لصورة الآخر، فقد ترابطت هذه الأخيرة مع مجموع المجتمعات الأخرى، وهي مخالفة للمجتمع المغاربي في عديد نقاط، وبشكل أكثر تحديدا، نقول إنها تمثل المجتمع الغربي، وذلك بحكم العلاقة الجغرافية والسياسية بين المغرب العربي والغرب، ومما نشير إليه هنا، أنه بحسب طبيعة العلاقة مع الغرب بمختلف اتجاهاته وتموقعاته، وأخصها مسألة العلاقات الحضارية تحكم الروائيون وبشكل عام في ضبط صورة الآخر التي استطاعوا أن يرسموها في متون رواياتهم، وبالتالي جلّت هوية هذا الغربي.

**الأنا والآخر في السردية المغاربية المعاصرة:**

يقع تحديد مصطلحي الأنا والآخر انطلاقا من السياق الذي يرد فيه كل واحد منهما، ومما يراد به حسب مبحثنا، أن الأنا المقصود به الأمة المغربية، في حين الآخر المراد به الأمة الغربية، سواء تحدثنا عن فرنسا، أو اسبانيا، أو ايطاليا، بما هي جزء من القارة الأوربية، أو قد يكون الآخر باقي قارات العالم الغربي، وهي مخالفة للمغرب العربي دينا، لغة، عرقا، جنسا، معتقدا، ...إلخ.

وعند مراجعة صورة الأنا والآخر في المتخيل السردي المغاربي المعاصر، يمكننا التأكيد على أننا لا نقف أمام صورة ثابتة، منمطة، سواء تعلقت بالأنا أو بالآخر في الخطابات الروائية المغاربية ما بعد الكولونيالية، وإنما نجد صورة أخذت نسقا تحدد ضمن تشكيلة من العناصر التركيبية، المتغيرة، تحكمت فيها أسيقة أدت إلى انبعاثها، وأخصها ذكرا محطات التواصل المختلفة والمتنوعة بين الأنا والآخر، حيث الأمة العربية عرفت وما زالت تعرف إلى اليوم هذه الوشيجة مع الآخر، وقد غذتها روافد الاستمرارية دون القطيعة اقتصاديا، سياسيا، علميا، عسكريا، صحيا، ثقافيا، نقديا، أدبيا،...إلخ، مما أسفر عن ذلك "التأثير الثقافي الهائل القادم من الغرب، التأثير الذي لا يمكن إنكاره مهما تعددت المواقف إزاءه"**2**.

ومما يمكننا إضافته مخلفات عامل الاستعمار، فإلى وقت قريب من بداية العصر المعاصر، هناك دول عربية عرفت استقلالها، وبحكم قرب عهد العلاقة مع الآخر مستعمِرًا، أثر ذلك على مرحلة ما بعد الكولونيالية في تشكيل صورة للآخر في ظل أجواء مشحونة، متوترة، غذتها الذاكرة الحية، والحساسية التاريخية.

تمت إنتاجية صورة للأنا والآخر، ضمن أنساق عديدة ومختلفة، في المتخيل السردي المغاربي ما بعد الكولونيالي، حتى أنه يمكننا ضبطها على النحو الآتي:

نسق المنبهر، حيث تقف الأنا من الآخر موقف المنبهر من حضارته، ثقافته، تطوره، علومه، ...إلخ، وكل الإيجابيات التي امتلكها، ويتضح هذا أكثر عندما تتم المقارنة بين الأنا والآخر، فيتراءى تقهقر وتأخر الأنا أمام الآخر، حيث "إن مواجهة الذات لحضارة الآخر مواجهة تاريخية حتمية لكونها جزءا أساسيا من المواجهات المستمرة بين الشعوب بثقافاتها وحضاراتها المختلفة، والذات هنا هي الفرد المبدع بما يحمله من تميز وبما يشترك فيه من خصائص وموروثات مع غيره من المنتمين إلى جنسه وثقافته، وفي تاريخ الآداب العالمية الكثير من الأعمال التي تسجل تفاعلا ذاتيا بين الفرد وبين ثقافات الشعوب الأخرى سواء اتخذ ذلك التفاعل هيئة التأثر والتأثير، أو انبثق في شكل مواقف وتأملات"**3**.

نسق آخر للأنا يتشكل بمجرد وقوف الأنا أمام مرآة الآخر، إنه نسق الشعور بالنقص، وهذا الذي فصل فيه أحد الدارسين قائلا: "وهذا الجانب ينبثق من الوقوف أمام الآخر – بما أنه وقوف أمام الاختلاف ومواجهة للمغاير- هو موقف كثيرا ما تتكبد فيه الذات شعورا بالنقص، فالمختلف هو ما تفتقر إليه الذات، هو مالا تملكه، أي أن الذات في مواجهة الآخر، إنما تواجه ذاتها منقوصة، تنظر في مرآة حاجتها وعوزها. الآخر حضور يحتد فيه شعور الذات بذاتها، وتزداد رغبتها بالاكتمال عبر الامتزاج به أو بما يرمز إليه"**4**.

إن رحلة تسريد الأنا قد تمت من عديد خبايا، أخصها مكاشفة نقائص الذات، ولهذا لاحقها هاجس تعرية الأنا وإبرازها على ما هي عليه وذلك على وجه الحقيقة، وكذا خضوع الأنا لفكرة الالتحام مع الأغيار في ظل عقدة النقص أو في ظل محاولة تطوير الأنا للحاق بالركب الحضاري...، وبهذا وغيره، يبقى نسق الأنا مجرد رصد مرصوف بالكلمات.

الآخر بما هو نسق للحضارة والتطور، فقد سعى المتخيل السردي المغاربي إلى رسم صورة الآخر ضمن نسق الحضارة المنسوبة إليه، والتطور الحاصل على عديد مستويات اقتصادية، علميا، واجتماعية بشكل خاص، فأصبح هذا النسق هدفا مستهدفا من قبل الأنا حتى راحت تتصيد صوبه فرص اللحاق به والتمتع بما لديه من خلال الهجرة الشرعية وغير الشرعية على حد سواء، وبهذا صار الآخر بما هو نسق الحضارة والتطور حلم الأنا بحسب بطل سنفونية الزودياك.

ومن الأنساق صورة الأنا المعادي للآخر، فقد تم اشتغال المحكي المغاربي على تسريد الأنا والأخر في متون الخطابات الروائية، حيث كانت نوية ذلك التسريد هو العلاقة بين الشرق والغرب، الصدام، الصراع، العدائية...، وغيرها، وهذا كله مبتعثه الآخر من حيث هو استعمار في صورته الجديدة، عدو يخطط للإساءة للأمة في راهنها، لتتشكل بذلك علاقة الصدام بين الأنا والآخر، فتشكلت صورة الآخر في ظل النظرة العدائية إليه، وإن كانت المرحلة ما بعد كولونيالية، إلا أنها نظرة أكدت على تاريخ جديد للآخر مع الأنا ملون بدمائها، ...إلخ، فيحيا بذلك الجديد في ظل المزاوجة فيه بين الذاكرة التاريخية التي لا تموت، والحساسية التاريخية التي هي نتاج الأولى، والراهن الدموي للأمة المغاربية وقد حينته أطماع الآخر.